الفصل السابع
نسق الوحدة والبناء في ترتيب الآي والسور

أ ـ نسق الآي :

ونقصد ههنا دراسة الأبحاث المعتنية بترتيب الآيات وتأكيد توقيفها على المؤمنين توقيفاً من الله عز وجل . ولكن قبل هذا يحسن أن نمهد بتمهيد لغوي يؤصل مصطلح الآية لغوياً ، ويرصد دلالاتها في سياق القرآن الكريم .

* **الأصل والدلالة القرآنية** : تطلق دلالة آية على مدلولات متعددة ذهنية وحسية، وهي لفظة عربية أصيلة ، لا يقلل من هذا اختلاف اللغويين في اشتقاقها ، فقد ذكر الراغب الأصفهاني أنها مشتقة من (أيّ) ، فإنها هي التي تبيّن أيّاً من أيّ ، أو أنها وهذا الصحيح الذي يرتضيه أنها مشتقة من التأتي الذي هو التثبت والإقامة على الشيء ، ويقال : تأي ، أي ارفق[1] .

ويذكر بعد سياقاتها القرآنية ثلاثة أقوال في بنائها اللغوي ، فهي على وزن فعلة ، والمفروض أن تكون اللام معتلة دون العين نحو حياة ونواة ، لكن صحّحت اللام لوقوع الياء قبلها نحو راية ، وقيل : هي فعلة إلا أنها قُلبت كراهة التضعيف كطائي في طيّى ، وقيل : هي فاعلة وأصلها آيِيةٌ ، فخففت فصار آيةً ، وذلك ضعيف لقولهم في تصغيرها : أييةٌ ، ولو كانت فاعلة لقيل أوية .

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، ص/ ٣٣ـ ٣٤ .

وليست كلمة الآية غريبة في الرصيد العربي المستعمل حتى تعدّ من غريب القرآن ، فلا وجه للغرابة ، ولم نسمع لها تصغيراً إلا هنا على سبيل القياس ، ولا يجوز شرعاً أن تُصغّر ، لكونها في نهاية المطاف كلام الله المقدس .

لكن سيبويه (١٨٥هـ) اللغوي المتخصص يضيء هذا الوزن الأول ، يقول : « أيية على وزن فعلة مثل أكمة وشجرة ، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفاً فصارت آية »[١] .

أما الوزن الثاني فقد ذكره الكسائي (١٨٩هـ) النحوي القارئ المشهور : « أصلها آيية على وزن فاعلة مثل آمنة فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت لالتباسها بالجمع »[٢] .

وتطلق الآية على معان متعددة :

١ـ المعجزة :

كما في قوله عز وجل : ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة : ٢١١] فقد تعددت لديهم المعجزات ، ولعله سياق قرآني خاص ، ومنه : ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر : ٢] .

٢ـ العلامة :

كما في قوله : ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة : ٢٤٨] في قصة طالوت مع بني إسرائيل .

٣ـ العبرة :

ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم

---

(١) الكتاب : ١/ ١٥٠ .

(٢) انظر : لمحات في علوم القرآن ، د . محمد الصباغ ، ص/ ٨٦ .

﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٨] في قصة طالوت أيضاً ، وقال عز وجل عن خلق عيسى عليه السلام : ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم : ٢١] .

٤ـ البرهان :

كما في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم : ٢٢] ، وتعني في رأينا : العلامة على وجود الخالق .

٥ـ البناء العالي :

وقد جاء في القرآن على لسان هود موبخاً قومه آل عاد : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء : ١٢٨] والريع المكان المرتفع ، والآية هنا البناء العالي الذي قصدوه للتحرش بالمارّين .

٦ـ الجماعة :

ولم يرد المعنى في القرآن ، إذ قال العرب : خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم ، وهو قليل الاستعمال ، أو ميت الاستعمال بعد انتشار المعاني القرآنية .

٧ـ الأمر العجيب :

وهو قول العرب : فلان آية في العلم ، وفلانة آية في الجمال .

وتجمع الآية على أي وآيات وآياء والجمع الأخير نادر الاستعمال .

ونستطيع القول : إن المعاني السابقة موجودة في الآية القرآنية ، فهي معجزة لكونها بعضاً من القرآن ، وهي علامة لأنها تدل على انقطاع الكلام قبلها عن الذي بعدها ، وهي عبرة لما تشتمل عليه من معان شريفة ، وتوجيهات سديدة ، وهي برهان لأنها تثبت وجود الخالق وأنها من خبر السماء للأرض ، وهي بناء عال لشرفها وكونها بناءً فكرياً ولكونها بنىً لغوية ، وهي جماعة لأنها عدة حروف ، وهي الأمر العجيب لأن القرآن

نص خارق معجز ، بخلاف أي كلام معهود ، ونظرة سريعة في الواقع والتاريخ تؤكد العجب العُجاب .

ونقيس ما ذكره الإمام القرطبي لنمكّن ما ذهبنا إليه وذلك قبل معرفتنا لما قاله القرطبي معللاً إطلاق معنى العلامة : « إن الآية علامة دالة على ما تضمنته من الأحكام ، وعلامة دالة على انقطاعه عما قبله وعما بعده ، أو لأن فيها عجائب القصص والأمثال والتفصيل والإجمال ، والتميز عن كلام المخلوقين ، أو لأن كل آية جماعة من الحروف »[1] .

أما المعنى الاصطلاحي للآية فلا شك أنه تخصيص وابتكار إسلامي ، أي صار يطلق على مسمى جديد لم يُعهد قبل ولا يُقبل على غيره بعد ، فهي في حقل الدلالة الاصطلاحية : « قرآن مركب من جمل ولو تقديراً ذو مبدأ ومقطع ومتدرج في ضمن السورة » .

ومعنى « تقديراً » أن نقدر ما يتمم الجملة ، كما في تقدير فعل القسم ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ أي : أقسم والفجر ، فتصبح جملة فعلية ، فهكذا هي قرآن مركب ، وتقدير المبتدأ في ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ [عبس : ١٥] أي هي بأيدي سفرة . وثمة آيات لا ينتهي عندها المعنى مثل : ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير : ١٦] ، و﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن : ٦٤] .

وأطول آية في القرآن آية الدين : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

وطولها يرجح أهمية العنصر المالي في المجتمع الإسلامي المنشود ، وتقع في حوالي صفحة ، تليها في الطول آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١/ ٥٨ .

وأقصر آية أن تكون كلمة واحدة ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ و﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ و﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ ، هذا من حيث كون الأقصر قرآناً مركباً ، أما من حيث كونها مقطعاً فالحروف المقطعة في بداية بعض السور أقصر الآيات .

وعدد آيات القرآن مسألة خلافية لا تضر بالقضية جوهراً ولا عرضاً ، فالعدد عند الإمام ابن الجوزي ستة آلاف ومئتا آية ، ثم جرى اختلاف في الكسر الزائد فقيل : وسبع عشرة آية وهو قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وقيل : ست ثلاثون وغير هذا[1] .

وسبب الخلاف الذي لا يضرّ ولا يغير من التوثيق أنه عليه الصلاة والسلام كان يقف على رأس الآية فمن لم يسمعه وقف ثم وصل لم يعتبر فاصلة ، فتكون الآيتان عنده آية واحدة[2] .

ولكن ثمة مواضع هي رؤوس آيات لا يجوز الوقوف عندها ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ فاعتبرت آية مع أنه لم يقف بدليل القراءات الواردة عنه ﷺ ولا عبرة للنغمة الموسيقية لتحديد الفاصلة ، فثمة فواصل داخلية كما في آية الكرسي لا يوقف عليها ، وأول من أشار إليها الداني (٤٤٤هـ) النحوي المعروف ، وذكرتها بالتفصيل في كتابي « جماليات المفردة القرآنية » .

إن تحديد الآية ليس اجتهاداً يُفهم من اختلاف العدد فهماً سطحياً ، ذلك أن الأمر توقيفي لا مجال للقياس فيه ، والدليل الناصع على التوقيف فواتح بعض السور ، إذ تعد هذه الحروف آية في مكان ، ولا تعد آية في مكان آخر .

---

(١) فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن ، ص/ ٤٠ .

(٢) انظر : دراسات في علوم القرآن ، د . فهد الرومي ، ص/ ١٢٩ .

لننظر إلى ﴿الٓمٓصٓ﴾ فهي آية في سورة الأعراف ، فلو كان الأمر قياساً لكان النظير ﴿الٓمٓرٰ﴾ في سورة الرعد ، كذلك نجد ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ آيتين في سورة الشورى ونجد النظير خمسة أحرف ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ليست آية وحدها في سورة مريم ، هذا الاختلاف دلالة على النقل والتوثيق لا على الرأي والاجتهاد .

وعدد الأحرف ثلاثمئة وثلاثة وعشرون ألفاً وستمئة وواحد وسبعون : (٣٢٣٦٧١)، وعدد النقاط مئة وخمسون ألفاً وستمئة وواحد وثمانون[1] .

وللأستاذ أحمد خيري كتاب يتمم ما أتى به ابن الجوزي من هذه الإحصاءات ، ثم إن الحاسوب قدم لنا ما يفيد ألواناً جديدة من الإعجاز يمكن أن يعتمد عليه ، ويمكن أن تحصى فيه أمور أخرى كالأحرف والنقاط والوقفات والأفعال والأسماء وغيرها .

وثمة نظرة جزئية وكلية إلى مصطلح الآية ، إذ يمكن أن تطلق على بعض من الآية وهذا وارد جداً في الشواهد على الاختصاصات كافة ، إذ قد يذكر المصنف كلمتين أو ثلاثاً من الآية ويعدها آية على سبيل المجاز اللغوي أي إطلاق الكل على الجزء .

وهذا مستفاد من قول ابن عباس رضي الله عنهما : « أرجى آية : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ » فهي بعض آية لا كلها ولا من أولها ، فالآية : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد : ٦] فهي رجاء وشدة على النقيضين كما نرى .

---

(١) انظر علوم القرآن والحديث ،أحمد داود ، ودراسات في القرآن ،أحمد خيري صفحات متفرقة .

وورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ما يؤيد إطلاق الآية على أكثر من آية قال : « أحكم آية : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ » [الزلزلة : ٧ـ٨] فهما آيتان ولعله أراد الجنس .

كما أطلقوا مصطلح آية الربا على ثلاث آيات من أواخر البقرة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦ـ ٢٨٠] .

والجدير بالتذكير أن التسمية الاصطلاحية مستمدة من القرآن الكريم ، فهو عز وجل سمى هذا المجموع المخصص آية ، قال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ ﴾ [آل عمران : ٧] في حال الجمع فقط ، في حين كان الإفراد لمعاني البرهان والعبرة والمعجزة كما ذكرنا .

فالتسمية توقيفية نصية لا تجوز على نص من غير القرآن ، قال الشيخ طاهر بن عاشور : « ولولا الوحي لربما كان اختلاف كبير بشأن الآية القرآنية ، ولربما لم يُهتد إلى هذا الاسم الجامع الدقيق الذي يحمل في طيّاته معاني لا تنفد ، ولهذا قال جمع من العلماء : لا يجوز أن تسمى جمل التوراة والإنجيل آيات ، إذ ليست فيها وهي بلغة عبرانية أو آرامية الخصوصية التي هي للآية القرآنية بصيغتها العربية »[1] .

---

(١) التحرير والتنوير : ١/ ٦٣ ، وانظر : مدخل إلى علوم القرآن ، د . فاروق حمادة ، ص/ ١٠٢ .

ثم قال : « وأما ما ورد في حديث رجم اليهوديين اللذين زنيا من قول الراوي : « فوضع الذي نشر التوراة يده على آية الرجم » ، فذلك تعبير غلب على لسان الراوي على وجه المشاكلة التقديرية تشبيهاً بجمل القرآن ، إذ لم يجد لها اسماً يعبر به عنها » .

ثمة إطباق من العلماء على أن ترتيب الآيات توقيفي ، مستلهمين هذا من أحاديث آحادية تشير إلى الترتيب ، ولكن الأقوى هو تواتر الأمة بإجماعهم على هذا الترتيب ، فتحديد الآية وترتيبها وترتيب السورة ـ كما سيتضح ـ أمر إلهي ، فليس من المعقول أن يعتني بالصغير ويهمل الكبير .

هناك نصوص تؤكد عامة الترتيب ، ونصوص تدل على ترتيب بعض الآيات التي تعد نموذجاً للترتيب الكلي .

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وإذا أنزل عليه الآية يقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا »[1] .

فالعموم واضح في التعابير « السور ذوات العدد » و« كذا وكذا » ، وهكذا ثبت بنصوص كثيرة أنه كان يقرأ الآيات في الصلاة وفي خطب الجمعة[2] ، وما كان للصحابة بعد أن سمعوا قراءته وسمعوا توجيهه للكتابة أن يرتبوا على خلاف ترتيبه وهكذا بلغ حدّ التواتر .

---

(١) الترمذي ، التفسير ، ح (٣٠٨٦) .

(٢) الإتقان : ١/١٠٥ .

إن طول فترة النزول جعله يأمر بوضع آيات في آخر السورة قبل أن يؤمر بوضع آيات في مقدمة السورة نفسها ، وهذا واقع في البقرة ، فهناك ما يسمى بالسورة المفتوحة التي لم يكتمل نزولها وترتيب آياتها إلا في سنوات .

ومن المحتم أن يكون الكثير من المكتوب في العهد النبوي من غير ترتيب السور والآيات إذا نظرنا إلى ضرورة التفريق في العسب والأكتاف والرقاع ونحوها ، أما الترتيب فواقع جلي في قراءته عليه الصلاة والسلام وقراءة الصحب الكرام ، لكن ما كان مكتوباً في قطعة واحدة ، مرتب الآيات لا خلاف في هذا .

وهناك أحاديث تؤكد ترتيب بعض الآيات مثل ما جاء عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ ، إذ شخص بصره ثم صوّبه ، ثم قال : « أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية في هذا الموضع من هذه السورة ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ . . . ﴾[1] » [النمل : ٩٠] .

لكن هذا النص ليس بالمتواتر من حيث السند ولم يؤكد نص ترتيب كل آية ، ويمكن أن يقال : يكتفى بتواتر قراءة الصحابة ، وبأن ما ذكر قياس على غيره ، وأن الترتيب قائم من غير الكلام عليه ، وإذا كان قد نبههم فالاستجابة عمل لم يكن يحتاج إلى كلام .

وروي كما ذكرنا عن النبي ﷺ أنه قال عن مواضع الآية الأخيرة ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٨١] : « اجعلوها بين آية الربا وآية الدين » وفي رواية قال : « جاءني جبريل فقال : اجعلوها

---

(١) المسند لابن حنبل : ٢/ ١٤٥ وهو حسن الإسناد كما في الإتقان : ١/ ١٠٤ .

على رأس مئتين وثمانين آية من البقرة » .

وثمة نص نبوي صحيح يثبت تذكيره بالأول والآخر من السورة ، إذ روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه »[1] .

والأحاديث في هذا المضمار كثيرة ، وقد جاءت عرضاً ليس بقصد تعليم الترتيب فأغلبها جاء في فضائل القرآن أساساً وأفادت الترتيب ، ولم نعدم قلة تصرّح بضرورة الترتيب .

وروى المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال : قلت لعبد الرحمن بن عوف (٣٢هـ) رضي الله عنه : يا خال ، أخبرني عن قصتكم يوم أحد ، قال : اقرأ بعد العشرين ومئة من آل عمران تجد قصتنا : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾[2] [آل عمران : ١٢١] . فهذا التحديد الرقمي من أقوى الأدلة على أن الترتيب أيام الصحابة هو ترتيب مصاحفنا اليوم .

وينقل الزركشي[3] أن ترتيب الآيات لم يكن ثمة اجتهاد فيه ، فهي كما تجمع الأمة مرتبة ترتيباً توقيفياً بأمر الله عز وجل ، لا قبل لبشر فيه ، وهذا مؤكد من صحة الأسانيد التي جاء فيها توضيح القضية ، ومن التماسك الفكري والفني الملموس بين الآيات مما يحقق إعجاز النظم .

---

(١) البخاري ، فضائل القرآن ، ح (٤٧٨٦) ، ومسلم ، صلاة المسافرين ، ح (٨٠٧) ، والترمذي ، فضائل القرآن ، ح (٢٨٨١) ، والدارمي ، الصلاة ، ح (١٤٨٧) ، وأبو داود ، الصلاة ، ح(١٣٩٧) ، والنسائي ، فضائل القرآن ، ح (١٠٥٥٤) ، وابن ماجه ، إقامة الصلاة والسنة ، ح (١٣٦٨) وغيرهم .

(٢) مسند أبي يعلى ، ح (٨٣٦) وفيه ضعف .

(٣) البرهان : ١/ ٢٥٦ ، والإتقان : ١/ ١٠٤ .

وقد نقل العلماء ما يثبت الإجماع في القضية ، وهكذا وصلنا القرآن الكريم بالتواتر على الشكل الحالي في المصاحف ، وهو الشكل الذي ارتضت به وأقرت به كل الفرق الإسلامية قديماً وحديثاً .

وثمة نصوص تؤكد حرص الصحابة على نهج النقل بالترتيب ، إذ كانوا يدركون أن الأمر إلهي موكول إلى جبريل عليه السلام إلى النبي عليه الصلاة والسلام تباعاً في كل نزول .

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه : قلت لعثمان رضي الله عنه : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة : ٢٤٠] قد نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها ؟ أو : تدعها ؟ قال : يا ابن أخي ، لا أغيّر شيئاً من مكانه »[1] .

فالسؤال يوجه لعثمان باعتباره جمع القرآن نسخاً ، وتمام الآية : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٤٠] ، وهي منسوخة ، والآية الناسخة : ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة : ٢٣٤] .

فالمنسوخ بعد الناسخ ترتيباً ، وقوله : تدعها : تتركها مكتوبة ، إذ وجدتها عندك وعند غيرك ، وكان ابن الزبير يظن أن ما نسخ حكمه لا يُكتب لفظه ، ولكنه يظل ثابتاً حتى تتجلى الرحمة الربانية في التشريع ، فقد كانت المرأة مصوناً لا تخرج من بيتها في الموت ، فإذا اختارت الخروج كانت عليها العدة ، وإن بقيت عليها العدة وعلى أهل زوجها النفقة والسكن ، وتحول زمن العدة من سنة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام .

---

(١) البخاري ، التفسير ، ح (٤٢٥٦) ، والسنن الكبرى ، العدد ، ح (١٥٢٣٧) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « قلتُ لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وعلى براءة من المئين ، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتموهما في السبع الطوال ؟ فقال عثمان رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه شيء دعا من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتها في السبع الطوال »[1] .

وكانوا يعرفون تسلسل الآيات وأرقامها ، إذ روى حذيفة بن اليمان (٣٦ هـ) رضي الله عنه : « صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة ، فافتتح سورة البقرة ، فقلت : يركع عند المئة ، ثم مضى فقلت : يصلي بها في ركعة ، فمضى ، فقلت : يركع بها ، ثم افتتح النساء ، فقرأها ، ثم افتتح آل عمران »[2] .

فمن الجائز تجاوز سورة إذ قراءة السور على غير ترتيب جائز ، بخلاف ترتيب الآيات ، وهذا النص وغيره نصوص تفي بالترتيب عموماً وليس بين أيدينا كما أسلفنا نصوص لكل آية فهذا لا يمكن .

---

(١) المسند ، ح (٣٩٩) ، وأبو داود ، الصلاة ، ح (٨٧٦) ، والترمذي ، التفسير ، ح (٣٠٨٦) ، والنسائي ، فضائل القرآن ، ح (٨٠٠٧) ، والسنن الكبرى ح (٢٢٠٥) والمستدرك ، ح (٢٨٧٥) ، وابن حبّان ، كتاب الوحي ، ح (٤٣) .

(٢) مسلم ، الصلاة ، ، وأبو داود ، الصلاة ، وموارد الظمآن ، المواقيت ، ح (٤٥٢٦) ، والمعجم الأوسط ، ح (٧٦٣٨) ، والترمذي ، الصلاة ، وابن ماجه ، الصلاة ،

فما ورد يدل على أن القاعدة شمولية ، وليس من اللازم رواية نص على ترتيب كل آية ، بل يكفي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ سوراً كثيرة على مسمع الصحابة الكرام في الفجر والمغرب والعشاء حيث الصلاة الجهرية ، بالإضافة إلى قراءة السور في خطبه التي كانت قرآناً خالصاً على الأغلب ، ولم يسأله واحد من الصحابة عن موقع أوائل الكهف أو العشر الأواخر منها ، أو خواتيم البقرة ، ليفيدوا منها في أذكارهم ، فالأمر معروف متواتر بينهم شفهياً وكتابة .

وما دام قد أخبره جبريل فالأمر موقوف منصوص عليه ، قال العلامة ابن تيمية شيخ الإسلام : « وأما ترتيب آيات السور فهو منزل منصوص عليه ، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية في الرسم كما قدموا سورة على سورة ، لأن ترتيب الآيات مأمور به نصاً ، وأما ترتيب السور فمفوض إلى اجتهادهم »[1] .

ب ـ آفاق معرفة الآية :

١ـ العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبيﷺ كأصغر سورة ، وهي الكوثر المكونة من ثلاث آيات ، لأنه قال تعالى : ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٣] ويقع في حكمها الآية الطويلة كآية الكرسي وما هو أصغر منها فإنه يعدّ معجزاً .

ولكن ماذا يقول هؤلاء بإزاء أقل من آية يثبت كروية الأرض ، أم أنهم يقصدون النسق الفني ، وهل يكون معدوماً في أقل مما ذكر ؟ فالإعجاز يتحقق في أقل من آية .

---

(١) مجموع الفتاوى : ١٣/ ٣٩٦ .

٢ـ الوقف وهو قضية تجويدية ، فالوقف على رأس الآية سنة ، وتحديد رأس الآية معين على اتباع السنة ، إلا في بعض الآيات التي لا يجوز الوقوف على رؤوسها مثل ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون : ٤] .

٣ ـ من يجهل الفاتحة يجب عليه قراءة سبع آيات بدلاً منها عند الإمام الشافعي .

٤ ـ اعتبار الآية في خطبة الجمعة ، فيجب قراءة آية كاملة في الخطبة ، ولا تجوز قراءة شطرها ، إلا أن تكون طويلة .

٥ ـ اعتبارها في طول الصلاة ، إذ روي أنه كان يقرأ في الصبح بالستين إلى مئة آية ، ومنه اعتبارها في السورة التي تقرأ بعد الفاتحة ، فيحسن أن تكون ثلاث آيات أو سورة قصيرة .

٦ ـ اعتبارها في قيام الليل ، فقد جاء في الحديث : « من قرأ بعشر آيات لم يكتب من الغافلين » ومن قرأ بخمسين آية في ليلة كتب من الحافظين ، ومن قرأ بمئة آية كتب من القانتين ، ومن قرأ بمئتي آية كتب له قنطار من الأجر »[1] .

٧ ـ اتخاذها معياراً ومقياساً زمنياً للفارق بين الأذان والإقامة ، وقدره الفقهاء بزمن تلاوة ثلاث آيات .

يتحتم عندنا أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يعرف بداية السورة من خلال تلقّيه البسملة ، وإلا من قال له غير الوحي : إن ما نزل بالأمس سورة جديدة ؟ وقد ورد في حديث خديجة رضي الله عنها : أن جبريل قال للنبيﷺ : قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالها . فقال : اقرأ ،

---

(١) الدارمي ، فضائل القرآن ، ح (٣٤٤٢) ، والمعجم الكبير ، ح (٧٧٤٨) ، والترغيب والترهيب للمنذري ح (٩٤٧) .

قال : ما أنا بقارئ »[1] ، وهو رأي رجحه السيوطي ، مع أن الأحاديث الخالية من البسملة لأول الوحي أقوى .

وقال الإمام الغزالي (ـ ٥٠٥هـ) بعد أن عرض موقف الشافعي في قرآنية البسملة : « وهذا أصح من قول من حمل تردد قول الشافعي على أنها هل هي آية من القرآن في أول كل سورة ، بل الذي يصح أنها حيث كتبت بخط القرآن فهي من القرآن »[2] .

فهي على الأرجح آية لكل سورة بخلاف سورة براءة فكانت بغير بسملة ، وقد ذكر العلماء أسباباً متعددة ، منها أن البسملة أمان وسورة براءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان ، وقيل : كان من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهد وأرادوا نقضه كتبوا إليهم كتاباً ، ولم يكتبوا فيه البسملة ، وقيل غير هذا[3] .

ونقول عدم وجود البسملة يدل على أن الأمر عموماً نقل لا تدخل للبشر فيه ، إذ القياس أن يكتبها المسلم لكنه لا يفعل تلميحاً إلى أن القدسية واجبة في المهم وغير المهم ، ولم تكن البسملة بأربع كلمات قبل الإسلام ، فكانت مثل : باسمك اللهم .

ج ـ نسق السور :

قبل الحديث عن نسق السور بين التوقيف والتوفيق ومناقشة النصوص والآراء وأبعاد الإشكال لا بد من إطلالة لغوية على هذا المصطلح الإسلامي الفريد .

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ، ص/ ٢٨٩ .

(٢) المستصفى للغزالي : ١/ ١٠٢ .

(٣) راجع البرهان : ١/ ٢٦٢ ، أحكام القرآن لابن العربي : ٢/ ٨٩٢ ، وأنوار التنزيل للبيضاوي : ١/ ٢٤٦ .

يذكر اللغويون أن السورة لها في الأصل اللغوي قبل التطور الدلالي عدة معان ، وينقل السيوطي عن العتبي (ـ ٣٩٠هـ) :

« السورة تُهمز ولا تُهمز ، فمن همزها جعلها من : أسأرتُ أي أفضلت ، من السؤر وهو ما بقي من الشراب في الإناء ، كأنها قطعة من القرآن ، ومن لم يهمزها جعلها من المعنى المتقدم وسهل همزها ، ومنهم من يشبهها بسورة البناء أي القطعة منه ، أي منزلة بعد منزلة ، وقيل : من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور ، ومنه السوار لإحاطته بالمعصم ، وقيل : لارتفاعها ؛ لأنها من كلام الله ، والسورة : المنزلة الرفيعة ، قال النابغة :

ألــم تــر أن الله أعطــاك ســورة ترى كل ملكٍ دونهما يتذبذب

والواضح أن الهمز تقليد للغة تميم كما ينص ابن عطية في مقدمته ، وتظل مع الهمز بمعنى القطعة من الشيء ، فكأن سور القرآن قطع متوالية حتى يكمل[١] .

ويلفت اللغوي أحمد بن فارس (٣٩٥ هـ) نظرنا إلى أن السين والواو والراء أصل واحد يدلّ على علو وارتفاع ، أي أن السورة مخففة من السؤرة .

أما القرطبي فيرى أنها مستمدة من كلمة السور التي تطلق على الناقة التامة[٢] كما يقال : إبل سور ؛ أي كرام فاضلة كما عند الزمخشري .

بناءً على ما سبق نستشف ملامح معنى الشرف ، وما يطول من البناء في السورة ، ويمكن أن نضيف معنى العلامة لوضوح المرتفع ، فهي

---

(١) انظر مقاييس اللغة ، ابن فارس : ٣/ ١١٥ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١/ ٥٧ .

سورة لارتفاعها وشرفها من بين الكلام ، ولكونها علامة تدل على صدق من جاء بها عليه الصلاة والسلام .

وتتصل بالسور لاشتمالها على الآيات كما يحيط الجدار المرتفع ببستان ، وكما أن السور يتكون من لبنات ، فكذلك السورة تتكون من آيات يتبع بعضها بعضاً ، فالعلو حسي في السور وله إيحاءاته في بناء الوحدات في السورة والعلو معنوي في السورة لشرفها فلا يطالها بشر ، قال الشاعر :

فما من فتى إلا له فضْل سورةٍ عليك وإلا أنـت فـي اللـؤم غـالبـه[1]

وليس من جدوى الربط بين المهموز والمخفف ، فنحن نغنى بدلالة فعل قال لا (قَوَل) ، ثم لم يرد في الكتاب ولا في كتب السنة وفضائل القرآن أن المصطلح ورد بلفظ سؤرة ، فهذا ترف ذهني .

والقرآن والسنة حجة لغوية عندنا ، إذ المعنى الحسي سؤر ؛ أي ما بقي من الشراب غير مستساغ تلطفاً وتأدباً مع النص القرآني ، وليس لمعنى البقية علاقة بتسمية هذا الجزء من القرآن .

وقال الفيروزأبادي في تعريفها الاصطلاحي الديني : « وقد أطلق على الطائفة المستقلة من آيات القرآن : ذوات مطلع ومقطع أو فاتحة وخاتمة سورة »[2] .

وأقلها ثلاث آيات كما في سورة الكوثر وأكثرها مئتان وست وثمانون كما في سورة البقرة .

وتحديد السورة توقيفي أمر به النبي ﷺ ، وقد قال زيد بن ثابت :

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري ولم نعرف الشاعر ، ص/ ٣١٢ .

(٢) بصائر ذوي التمييز : ١/ ٨٤ .

« كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع »[1] .

فلم تكن تنزل السورة تباعاً ، وثمة سور مفتوحة يعلم عليه الصلاة والسلام اسمها قبل أن تكتمل ، ثم يشرف على جمع السورة تمامها أو ما أضيف إليها ، وعلى هذا يمكن أن نطلق مصطلح السورة على مقطع قرآني محدد بالتوقيف تحت عنوان محدد .

إن هذه التسمية كانت شائعة عند العرب في نظر الشيخ طاهر بن عاشور رحمه الله[2] والدليل عنده قوله تعالى : ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٣] ، فلا يكون التحدي إلا باسم متداول أيام نزول القرآن وتحديه حتى يكتمل معنى التحدي .

ولكن هل يريد الشيخ أنهم كانوا يعرفون معنى السورة في حيز تأليف الكلام ، هذا لم يرد ، ولنراجع المعاني : السور ، السؤر ، السؤرة ، بل الأسلم أن نقول : شاع عندهم مع نزول القرآن على مجموعة من هذا الكلام الذي جاء به محمدﷺ ، ولعلهم لم يفرقوا بين آية وسورة بل هي مجرد مجموعة من كلام قرآني .

وليس من المقبول في اللغات وتاريخها ما ذكره الزمخشري ، قال : « ولأمر ما أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج مسوَّرة مترجمة السور »[3] .

وقد أخرج ابن أبي حاتم (٣٢٧ هـ) ما يردف كلام الزمخشري إذ أخرج عن قتادة التابعي الجليل (١١٨هـ) قال : « كنا نُحدَّث أن الزبور

---

(١) الترمذي ، المناقب ، ح (٣٩٥٤) ، ومسند أحمد ، ح (٢١٦٧) ، والمستدرك ح (٢٩٠٠) ، والمعجم الكبير ، ح (٤٩٣٣) .

(٢) التحرير والتنوير : ١/ ٦٧ .

(٣) الكشاف : ١/ ١٢٨ .

مئة وخمسون سورة كلها مواعظ وثناء ليس فيه حلال وحرام ولا فرائض ولا حدود ، وذكروا أن في الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال »[1] .

ويذكِّر مضمون الزبور إذن بما جاء في الحديث القدسي الذي لم يُعن بالتشريعات بل حفل بالقلبيات والروحانيات ، ولعل هذا سبب ذكر الزبور عند التابعين .

ولكن المهم في المقبوس الأخير أن تعد الأمثال من الإنجيل ، وهي سفر من التوراة أي العهد القديم وعدد إصحاحاته واحد وثلاثون[2] ، وليست في الإنجيل .

والأهم أن أهل الكتاب يطلقون مصطلح الإصحاح ، ولا نعرف إذا كانوا يطلقون على أجزاء الإصحاح آيات ، مع أن كلمة الآية معروفة في العبرية بمعنى العلامة ، ولنطلق على الجزء الصغير فقرة ، ونترك تسمية الآية والسورة للقرآن كما غلب في الثقافة الإسلامية .

د ـ بين توقيف وتوفيق :

ذهب العلماء في مسألة ترتيب السور ثلاثة مذاهب : فطائفة ترى أن القرآن جميعاً مرتب توقيفاً ، وطائفة ترى أن ترتيب السور توفيقي واجتهاد من الصحابة ، وطائفة تقف وسطاً لترجّح توقيف معظم ترتيب السور .

أ ـ فريق النقل :

يقول صاحب كتاب المباني وهو مجهول : « فأي عقل يوجب تأخير سورة (اقرأ) إلى أخريات الكتاب ، وهو من أوله نزولاً ، وتقديم قوله :

---

(١) الإتقان : ١/ ٦٦ .

(٢) راجع الكتاب المقدس : ١/ ٩٣٧ .

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٨١] إلى أول الكتاب ، وهو من آخره نزولاً »[١] .

والأحاديث في هذه القضية مستفيضة مشهورة ، قال أوس بن حذيفة الثقفي رضي الله عنه : « كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « طرأ علي حزب من القرآن ، فأردتُ ألا أخرج حتى أقضيه ، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا : كيف تحزّبون القرآن ، قالوا : نحزبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من (ق) حتى نختم »[٢] .

والمعروف في السيرة أن وفد ثقيف كان في السنة التاسعة للهجرة ، أي يكون معظم القرآن قد نزل إذا نظرنا إلى كثرة مكيّه ، ودنو أجله عليه الصلاة والسلام في المدينة ، ونجمع الأرقام : ٣+٥+٧+٩+١١+١٣= ٤٨ والرقم ٤٩ لسورة (ق) وما دامت الفاتحة مشهورة لم تحسب في العدّ ، فرقم السورة (ق) : ٥٠ كما هو معروف في مصاحفنا ، وقد نصّ ابن حجر في شرحه على صحيح البخاري على أن الترتيب منذ بدأ كما هو في مصاحفنا .

ومن الأدلة النقلية الكثيرة ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في سور بني إسرائيل (الإسراء) والكهف ومريم وطه والأنبياء : « إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي »[٣] ، فذكرت السور كما في ترتيب مصاحفنا .

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ، ص/ ١٢٥ .

(٢) أبو داود ، فضائل القرآن(١٣٩٣) والمسند لأحمد : ٤/ ٣٤٣٢٩ ، وابن ماجه : ١/ ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

(٣) البخاري ، التفسير ، ح (٤٤٣١) ، وشعب الإيمان ، (٢٤٤٩) .

وقال ﷺ كما روى عنه واثلة بن الأسقع ، رضي الله عنه : « أُعطيتُ مكان التوراة السبع الطول ، وأعطيت مكان الزبور المئين ، وأُعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفصلت بالمفصل »[1] .

وتبعاً لهذا الحديث نجد أن سور القرآن أربعة أقسام :

١ـ الطول :

جمع طولى وهي كما في النص النبوي : « البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة » معاً لعدم وجود البسملة بينهما ، هذا خاص بالترتيب ، أما الأطول عموماً فتوضع يونس المؤلفة من تسع ومئة بدلاً من الأنفال والتوبة مع أن التوبة مئة وتسع وعشرون آية ، والتوبة ست وعشرون صفحة ويونس تسع عشرة ومن هذا المنطلق لا تعد الشعراء (٢٢٧) آية من الطول ، لأنها أربع عشرة صفحة فلماذا يضعها بعض المعاصرين من الطول دون التوبة[2] ؟

٢ـ المئون :

وهي السور التي زادت آياتها على المئة أو قاربت المئة ، يمكن أن تعد منها ، يونس (١٠٩) وهود (١٢٣) ، يوسف (١١١) ، النحل (١٢٨) ، مريم (٩٨) .

٣ـ المثاني :

وهي السور التي تلي المئين عدد آيات ، قال الفراء : « هي السور التي

---

(١) مسند أحمد ، والمعجم الكبير/ح (١٨٦) .

(٢) مثل دراسات قرآنية ، د . عدنان زرزور ، ص/ ١١١ ، وتاريخ القرآن ، د . إبراهيم الأبياري ص/ ٩٤ .

بها أقل من مئة آية ، ولأنها تثنّى ـ أي تكرّر وتعاد ـ أكثر من الطوال والمئين[1] .

ويمكن إطلاق المثاني على جميع السور كما جاء في قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ [الزمر : ٢٣] ، فالمثاني تسمية لتكرار القصص في هذه السور وتلك مثل الفرقان (٧٧) ، النمل (٧٣) ، العنكبوت (٦٣) ، والروم (٦٠) ، لقمان (٣٤) .

٤ ـ المفصل :

ما يلي المثاني من قصار السور ، وسمي مفصلاً لكثرة الفصل بين السور بالبسملة ، ولا معنى لقلة النسخ فيه كما يرى الدكتور إبراهيم الأبياري[2] ، لأن النسخ مع كونه قليلاً في المكي الغالب في أواخر السور من المصحف ، فهو قليل ، و(فصل) تعبير لا علاقة له بناسخ ومنسوخ . إذ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما : « إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم »[3] .

فالمفصل أواخر المصحف ، وليس صحيحاً أن نقول : أواخر القرآن ؛ إبعاداً عن تاريخ النزول ، وذكر الإمام النووي (ـ ٦٧٦هـ) أن أول المفصل سورة الحجرات ، لكن الزركشي يذكر عشرة أقوال والصحيح عند سورة ق[4] .

وهذا المفصل ثلاثة أقسام عند النووي : طوال : من أول الحجرات إلى سورة البروج ، وأواسط : من سورة الطارق إلى سورة (البينة) ،

---

(١) معاني القرآن ، الفراء : ٢/ ١٥٠ .
(٢) تاريخ القرآن ، إبراهيم الأبياري ، ص/ ٩٤ .
(٣) مسند أحمد ح (٢٢٨٣) ، والبخاري ، فضائل القرآن ، ح (٤٧٤٨) .
(٤) التبيان للنووي ص/ ١١٤ . البرهان : الزركشي : ١/ ٣٠٨ـ ٣١٠ .

وقصار : من سورة الزلزلة إلى آخر المصحف .

ومن الأدلة النقلية ما أجمع عليه الصحابة في جمع عثمان رضي الله عنه ، فهذا دليل توقيف ، وذلك بوجود مفارقات تدل على النقل لا على العقل الاجتهادي ، فالحواميم ؛ وهي السورة التي افتتحت بحروف مقطعة حم ، وهي : غافر ، فصلت ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف ، قد رتبت متوالية في المصحف .

وهذا بخلاف السور المسبحات ؛ أي التي تبدأ بـ (سبح لله) و(يسبح لله) وهي : الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن ، إذ فصل بين هذه السور بالمجادلة والممتحنة والمنافقون ، وفصل بين طسم الشعراء وطسم القصص بطسم النمل مع أن النمل أقصر من القصص ، كل هذا لا يدل على اجتهاد من قريب أو بعيد ولا في الجزء والكل ، إذ هذه الفروق بين المتماثلات ترسّخ القول بالنقل .

وفضلاً عن نسق الفواتح هناك الطول والقصر ، فقد تفصل السورة القصيرة بين سورتين طويلتين ، وقد يكون العكس بأن تفصل الطويلة بين قصيرتين ، بل هذا واضح حتى في جزء عم من قصار السور ، فالبيّنة طويلة وقد فصلت بين سورتين قصيرتين : القدر والزلزلة .

كذلك لم يرتب تاريخياً بحسب النزول الزمني ، فأول سورة تشتمل على آخر ما نزل على الإطلاق ومعظم القصار في نهاية المصحف مما نزل في العهد المكي ،وسنبين تداخل الآيات المكية والمدنية في سورة واحدة .

وكذلك لم ترتب السور على المكي أو المدني ، إذ تتخلل سور مكية سورة مدنية أو العكس . فمع انتفاء العلة للنسق القائم وجب الاعتقاد بالتوقيف .

ويبدو لنا أن القول بالتوقيف هو رأي الأغلبية ، فلا نحبذ الاقتصار على ثلاثة علماء وهم أبو جعفر النحاس (ـ ٣٣٨هـ) وأبو بكر الأنباري (ـ ٣٢٨هـ) والكرماني (ـ ٧٨٦هـ) كما صنع السيوطي[١] ، حتى لا يظن القارئ أن سائر الناس يقولون بالاجتهاد .

ب ـ فريق العقل :

الطائفة الثانية : يأخذون بالتوفيق والاجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم ، وينسب السيوطي هذا الرأي إلى الجمهور ، فكأنه يخالف الجمهور في وضعه كتاباً وهو « تناسق الدرر في تناسب السور » الذي يدل على إعجاز تسلسل السور .

وممن قال بهذا الرأي الإمام مالك (ـ ١٧٩هـ) رضي الله عنه قال : « إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ » مع قوله بأن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة ، فالخلاف لفظي .

ويستدل هؤلاء باختلاف المصاحف عند الصحابة فيما بينها ، مثل مصحف « أُبي » ومصحف « ابن مسعود » ومصحف « علي » رضي الله عنهم ، فمصحف أُبي يبدأ ـ وهو مفقود كقرينيه ـ بالفاتحة ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران ، ولعل هذا يوافق الحديث الذي ذكرناه عن حذيفة قبل صفحات .

ورتب مصحف علي بحسب تاريخ النزول ، إذ بدأ المصحف بسورة اقرأ ، ثم المدثر ثم المزمل كما يقول الدكتور محمد خلف الله ناقلاً عن ابن أشتة[٢] . إلا أن الدكتور إبراهيم الأبياري يذكر لعلي ترتيباً آخر ففيه :

---

(١) الإتقان : ١/ ٦٢ .

(٢) البرهان : ١/ ٢٥٧ مباحث في علوم القرآن د . صبحي الصالح ص/ ٧٢ ، ومدخل ، د . أبو شهبة ص/ ٣٣١ .

البقرة ، يوسف ، العنكبوت ، الروم ، لقمان[1] ، والأصح أن ينسب إلى مصحف ابن عباس رضي الله عنهما .

على أية حال هو بحث خارج نطاق الواقع ولا جدوى من إعادته ما دام مصحفاً محروقاً كغيره بإزاء مصحف الأمة جمعاء .

وما يُرفض هنا كلام يذكره ابن النديم (ـ ٤٣٨هـ) إذ ينقل أن بعض الناس قرؤوا في مصحف أبيّ وكانوا يروونه عن آبائهم ، وكذلك مصحف لابن مسعود ، ثم يقول : « رأيت عدة مصاحف ذكر نُسّاخها أنها مصحف ابن مسعود ، ليس فيها مصحفان متفقان ، وأكثرها في رقّ كثير النسخ ، وقد رأيت مصحفاً قد كتب منذ نحو مئتي سنة فيه فاتحة الكتاب »[2] .

هذا الكلام واهٍ لا يقف لبرهان جمع عثمان حرّاق المصاحف ، ونقل مثل هذا عند الدكتور إبراهيم الأبياري يشكك بالجمع وإجماع الأمة ، وليس مما يوحد الصف فكرياً أن نسرد اختلافات جداول حول ترتيب المصاحف عن الأعلام الصحابة[3] .

وهذه المصاحف الفانية حرقاً لا تصلح دليلاً لعدم التوقيف ، فهي مصاحف خاصة قديمة ، وهي أقرب إلى كتب علمية لاشتمالها على بعض المأثورات والتأويل منها إلى المصحف المجرد ، فلا يعوّل عليها . قال علي رضي الله عنه : « إن ما فعله عثمان بإجماع منا ، ولو لم يفعله لفعلته »[4] .

---

(١) علوم القرآن ، د . محمد أحمد خلف الله ، ص/ ١٨ .

(٢) في تاريخ القرآن ، د . إبراهيم الأبياري ، انظر الجداول ص/ ٨٧ـ ٩٣ ، والفهرست ص/ ٢٩ ص/ ٨٧ .

(٣) تاريخ القرآن للزنجاني ، ص/ ٢٦ .

(٤) الإتقان : ١/ ١٣١ .

وإذا كان ثمة اجتهاد فهو اجتهاد مقيد بالمأثور عن النبي ﷺ ، إذ الأحاديث عن ترتيبه للسور في أثناء القراءة والصلاة كثيرة ، وكان يقرأ أحياناً ربع القرآن دفعة واحدة في إحدى الركعات من صلاة الليل ، فقراءته هذه كانت هادياً لهم في ترتيب سائر السور ، خصوصاً أن عدد السور كان متفقاً عليه ، وكل سورة كانت مرتبة الآيات مدونة في صحف .

وتقف طائفة موقفاً وسطاً ـ وهم الأكثر في رأي السيوطي ـ فيرون أن أغلب السور قد رتب في حياته الشريفة ﷺ ، وترك جزء مفوّضاً إلى الصحابة واجتهادهم ، ثم حصل اختلاف في قدر هذا المختلف عليه .

قال ابن عطية في المقدمة : « إن كثيراً من السور قد علم ترتيبها في حياة النبي ﷺ كالسبع الطوال والحواميم والمفصل ، وما سوى ذلك فيمكن أن يكون فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده »[1] .

وقال هؤلاء : « ظاهر الآثار أن السبع الطوال والحواميم والمفصل كان مرتباً في زمن النبي ﷺ ، وكان في السور ما لم يُرتب ، فهذا الذي رتب وقت الكَتْب » .

وعلى هذا لا جدوى مما ذكره المفسرون من ارتباط السور بوشائج موضوعية ، ولكن السيوطي لا يدفع هذا الرأي مع أنه مؤلف كتاب الدرر في تناسب السور كما أسلفنا ، والغريب أن يقول في نهاية المطاف : « والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي ، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة والأنفال »[2] .

ولا ينبغي أن يُستدل بقراءته ﷺ سوراً ولاءً على ترتيبها كذلك ،

---

(١) مقدمتان ، ص/ ٢٧٦ .

(٢) الإتقان : ١/ ٦٤ .

وحينئذ فلا يردّ حديث قراءته للنساء قبل آل عمران ، لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب ، ولعله فعل ذلك لبيان الجواز .

إن مسألة الاجتهاد في ترتيب براءة والأنفال لا يقبلها العقل لطول السورتين وقضية البسملة المفقودة أول براءة لا علاقة لها بالترتيب ، إن حفظ الصحابة لترتيب السور عن نبيهم ﷺ أسهل من حفظ ترتيب الآيات الذي لا ينازعه شك .

ولا نعتقد أن الله عز وجل يترك هذا الأمر لإجماع المسلمين ولم يترك لأفضل المسلمين من الصحابة ، ألا يوجد بون شاسع بين سور مرتبة بالوحي وسور مرتبة بالاجتهاد ، مع أنه لا يوجد سور مرتبة باجتهاد النبي عليه الصلاة والسلام ، وهل يرضى الله عز وجل أن يرتب القرآن على غير ترتيبه عنده في اللوح المحفوظ ، مع أن الترتيب شيء من المصداقية ودلالة الصيانة .

إننا لا نعزي أنفسنا بفقدان الدليل على ترتيب بعض السور كما يقول الدكتور فهد الرومي : « وما لم يرد دليل على ترتيبه لا يعني أنه رتب بطريق الاجتهاد ، فقد يكون ترتيبه بدليل لم يصل إلينا »[1] .

ولكن ضياع الدليل يشكك بحفظ الله للسنة ، وما لنا لا نقول : يرتب الصحابة كما سمعوا ولا حاجة للقول عند كل سورة : هكذا سمعنا ! ما دام المسموع قد تواتر ، ولم يرد حديث لأجل تعليم الترتيب ، إنما ورد في الفضائل وفي كونه كان يصلي ويقرأ للدلالة على قدر المقروء لا على ترتيبه ، فالأمر بديهي ، فهم لم يسألوا ، ولو سألوا لوصلنا أكثر مما نجد من دلائل .

---

(١) دراسات في علوم القرآن ، ص/ ١٢٤ .

ويجب ألا نترك المسألة معلقة مكتفين بتقديس إجماع الجَمَعة من الصحابة ، قول الدكتور لاشين : « سواء كان ترتيب السور توقيفياً أم اجتهادياً ، فإنه ينبغي احترامه ، خصوصاً في كتابة المصاحف ، لأن أقل الأمرين رعاية صدوره عن الإجماع ، والإجماع حجة واجبة القبول ، والله أعلم » .

أيعقل أن نخمن بالاجتهاد ، ونظن أن يترك النبي عليه الصلاة والسلام ترتيب بعض السور مع أن المعلوم تواتراً أنه قرأ القرآن جميعاً أكثر من مرة ، وأن نُطقه لحركة في كلمة قرآنية قد ثبت بنقل متواتر كما في علم القراءات فهل يترك أمر الترتيب ؟

ولا شك في رأينا أن ما يقال بالاجتهاد لنسق الكل أو البعض نابع من حب المغايرة ومتابعة الشواذ من الآراء والجمع بعد الجمع ، وإذا كان العرب قد وصفوا بأنهم فرسان كلام قبل الإسلام ، فإن كثيراً من العلماء المصنفين يوصفون في رأينا بأنهم فرسان جمع وفرسان آراء .

والمؤلم ألا تناقش الآراء الشاذة بل تترك ولو أبكت أو أضحكت ، والمؤلم أكثر ترديد هذه الخلافات على أن جميع أطرافها قابل للحقيقة عند كثير من المعاصرين ، حتى يفتحوا ثغرة لجاهل أو حاقد ، وباحث غشوم أو ظلوم .

هـ ـ آفاق نسق السور :

من الطبيعي والطبع المتأدب ألا نسأل الخالق عن فائدة ترتيب السور على الشكل الموجود ، ولكن ثمة تطلعات يذكرها العلماء ، ولا ندعيها أسباباً ، فلا نسأل عن قضاء الله ، فكله حكمة .

لقد شاء الله تعالى أن يخلق لنا طبيعة فكرية وطبيعة عاطفية توائم هذه الطبيعة ما اقتضاه في عالم الأزل ، فلو أراد شيئاً آخر لهيّأنا له ، فنحن

نتأمل الحكمة وفق ما نجد فينا من روائز فكرية عاطفية ، ونفهم مدى تلاؤم هذا مع طبيعتنا ، أي ندرس حال التلقي لا حال المرسل .

وسنذكر ما لمسه العلماء من حِكَم في الترتيب أو التقسيم على سور :

١ـ التيسير والتشويق لمدارسة القرآن الكريم ومراجعته وحفظه ، إذ لو كان سبيكة واحدة لشقّ حفظه وصعبت دراسته ، فالفائدة عقلية منهجية ، ونتخذ من تقسيم القرآن على سور منهجاً في الدعوة قوياً ، فالبناء المتمكن في كل جزئية مع التمهل هو الحل الناجع لنسف الماضي وبناء الحاضر ، ولطمس التقليد واستحضار التجديد .

فليس من اللائق أن نثقل كاهل طلبة العلم بما لا يطيقونه حفظاً ، حتى يُشغل الطالب بالحفظ عن الفهم ، وبالترديد عن الإدراك ، أليس من عيب كبير أن نردد كلام إله غير مفهوم ، إن هذا على الأغلب يؤدي إلى نفور عن مجالس العلم ، فتغدو العملية حشواً فاسداً في متاهة فكرية ، ولا تبدو للنص فاعليته المرجوّة .

٢ـ يحصل المسلم على وحدة موضوعية في السور . أو كما قال الشاطبي : « السورة مهما تعددت قضاياها فإنها تكون قضية واحدة » ، وسورة « المنافقون » كلام مطول على هذه الفئة الباغية الطاغية ، وسورة يوسف قصة واحدة ، وكذلك سورة مريم ، والموضوع الرئيسي لسورة التوبة هو كشف أسرار المنافقين ، ومسلكيتهم المعوجة في المجتمعات ، والأمثلة كثيرة .

٣ـ التنبيه على أن الطول ليس شرطاً في الإعجاز والتحدي ، فسورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة ، وفي رأينا الكلمة الواحدة معجزة ، لأن غير الأنبياء لا صلة لهم بالسماء ، وكل كلمة من القرآن هي قرآن .

٤ـ السورة جزء وكل ، فإذا انطوى تحتَ الجنس أصناف كان أحسن من كونه باباً واحداً ، وههنا تشابك الوحدات في الوحدة الكلية ، ولا شك أن نهاية السورة محطة نفسية لتنشيط الهمم والتفكير فيما قرأ المسلم من أفكار .

فهنا لطيفة من لطائفه عز وجل إذ يُدفع الملل الذي هو تعب نفساني ويدفع الكلل الذي هو تعب جسماني ، كما يحصل للمسافر مع المحطات ، وفي الحديث النبوي : « إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »[1] ، والمنبت المسرع في السير من غير راحة ، فيتعب ناقته ، وهذه حكمة نفسية فردية يمكن أن تطبق على سبيل المجتمعات .

٥ـ إذا حفظ القارئ سورة وحذق معانيها اعتقد أنه أخذ شيئاً مستقلاً من كتاب الله ، فيعظم عنده ، وههنا إثبات للذات لخدمة الموضوع ، ولا حرب بينهما كما في الفلسفات الأرضية المريضة ، إذ لا تتورم الشخصية الإسلامية !

٦ـ وثمة فائدة تفيد التأدب مع الله عز وجل ، ذلك أن القارئ يقف عند نهاية كلام غير مقطوع قطعاً ، وما دام من الأدب أن يتم القارئ قراءة الآية لينشغل بكلام آخر ، فإن تمام السورة يفيد التأدب مع مخاطب هو الخالق عز وجل ، ومن هذا المنطق استحب العلماء قراءة سورة في الصلاة بدلاً من آيات بحجمها .

ونذكر بأن أنساً رضي الله عنه كما في المسند قال : « كان الرجل إذا

---

(١) المسند : ٣/١٩٩ .

قرأ البقرة وآل عمران جلَّ فينا » . أي علا قدره ، وبالطبع كانت القراءة تدبراً وحفظاً .

والجدير بالذكر أن من مظاهر عناية السلف الصالح بالقرآن تعدد أسماء السورة الواحدة ، وجرى خلاف بين كون تسمية السور التي هي بالمصحف من التوقيف أو التوفيق ، إلا أن السيوطي ذهب إلى أنها مسماة بتوقيف من النبي ﷺ ثم قال : « وثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ، ولولا خشية الإطالة لبينتُ ذلك »[1] .

وذكروا أن سورة التوبة لها ثلاثة أسماء : براءة ، والفاضحة ، والحافرة ، وقال حذيفة ﷺ هي سورة العذاب ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : كنا ندعوها المشقشقة ، وقال الحارث بن يزيد رضي الله عنه : كانت تدعى المبعثرة ، ويقال لها أيضاً : المسورة ، ويقال لها : البحوث ، أي تبحث في شؤون المنافقين ، ونستنبط مما سبق أن سورة التوبة ذات أسماء ثمانية .

ويذكر الزركشي والسيوطي أن سورة الفاتحة اتخذت خمسةً وعشرين اسماً ، منها : أم الكتاب ، أم القرآن ، السبع المثاني ، الصلاة ، الحمد ، الوافية ، الكنز ، الشافية ، الكافية ، الأساس ، وسميت البقرة وآل عمران بالزهراوين ، وسميت الفلق والناس بالمعوذتين .

وكذلك سميت السور المبتدئة بـ (حم) بالحواميم وهناك الطواسين ، أي بدأت بـ (طس) ، وتسمى البقرة فسطاس القرآن لعظمها وبهائها ، وتسمى النحل سورة النعم لما عدد فيها من النعم على العباد ، وسورة غافر سميت سورة المؤمن .

---

(١) الإتقان : ١/ ٥٢ .

وما رصده العلماء من أسماء للسور هو مجرد أوصاف لهذه السور ، فلا شك أن الاسم الوحيد ما وصلنا مكتوباً على المصاحف ، أما ما ذكروه فهو صفات مستلهمة من موضوع السورة وإن ذكرت هذه الأسماء في أثر نبوي ، فالتوثيق أن نقول : جاء في سورة البقرة ولا نقول : في فسطاس القرآن على سبيل التدليس المعروف في علم الحديث ، إذ يسمى الشيخ المحدّث بغير اسمه .

يقول الدكتور لاشين : « والذي ينبغي التزامه هو المحافظة على الاسم الوارد وعدم تغييره ، فإن في فتح باب جواز التسمية إهداراً لكيان السورة وما اشتهرت به ، وتعمية للجليّ الواضح ، ووضعه في ثوب الجهل والخفاء ، مما لا يليق وعظمة سور القرآن »[1] .

وهكذا انتهينا إلى أن ترتيب الآيات وترتيب السور وأسماء السور توقيف من النبي عليه الصلاة والسلام ، فماذا عن ترتيب السورة تلاوة في الصلاة وغيرها ؟

قال الإمام النووي : « قال العلماء : الاختيار أن يقرأ على المصحف ، فيقرأ الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران ، ثم ما بعدها على الترتيب ، سواء قرأ في الصلاة أم في غيرها ، ثم قال بعض أصحابنا ـ ويريد الشافعية ـ ويستحب إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التي تليها ، ودليل ذلك أن ترتيب المصحف إنما جعل لحكمة ، فينبغي أن يحافظ عليه إلا فيما ورد الشرع باستثنائه كصلاة الصبح يوم الجمعة ، يقرأ في الأولى « ألم السجدة » وفي الثانية (هل أتى) ، ولو خالف الموالاة فقرأ سورة لا تلي الأولى أو خالف الترتيب فقرأ سورة قبلها جاز ، فقد جاءت بذلك

---

(١) اللآلئ الحسان ، لاشين ، ص/٣٨ـ٣٩ .

آثار كثيرة ، وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الركعة الأولى من الصبح بالكهف وفي الثانية بيوسف ، وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف ، روي عن الحسن أنه كان يكره قراءة القرآن إلا على تألفه في المصحف ، وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فممنوع منعاً مؤكداً ، لأنه يذهب ببعض ضروب الإعجاز ويزيل حكمة ترتيب الآيات ، وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قيل له : إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً ، فقال : ذلك منكوس القلب ، أما تعليم الصبيان القرآن من آخر المصحف إلى أوله فحسن ، وليس في هذا الباب ، فإن ذلك قراءة متفاضلة في أيام متعددة على ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم »[1] .

وهو منهج قويم حتى يكون أول ما يحفظ من القرآن قصار السور ومن المفصل ثم يتدرج منها الطالب إلى الأطول فالأطول حتى يتم القرآن .

و ـ قضايا للمناقشة :

ثمة دعوات متفرقة يتفوّه بها هنا وهناك أحابيل الشياطين من الإنس ، بدعوى سخيفة هي الاحتكام إلى الواقع وتوسيع رقعة الدعوة القرآنية ، وأشياء أخرى مدحوضة ، مثل الترتيب الزمني والترتيب الموضوعي .

فبعضهم يرى أن دين الإسلام يتصف بالعالمية حتى نقول بأن ترتيب الآيات والسور عمل قام به النبي ﷺ ، لنتخلص من محلية الدين الإسلامي ، وأنه دين العرب وحدهم كما يردد مستشرقون[2] .

وقال الدكتور نصر حامد أبو زيد رحمه الله : « إن قراءة النص قراءة خاصة من حيث ترتيب نزول الآيات يمكن أن يكشف لنا عن كثير من

---

(١) راجع التبيان والأذكار للنووي .

(٢) راجع في تاريخ القرآن ، د . محمد الدسوقي ص/ ١٦ .

حقائق حركة النص في الثقافة تشكلاً وتشكيلاً ، وإن كان الوصول إلى هذا الترتيب الدقيق أمراً يحتاج إلى طاقات كثيرة من الباحثين »[1] .

فالذي يريده في ترتيب الآيات بحسب النزول ترتيباً زمنياً ليس معرفة الناسخ والمنسوخ ولا تدرُّج التشريع ولا بناء المجتمعات ولا دلالة الإعجاز ، بل المقصود أن النص من قبيل الثقافة المحلية ، فهو نص يتشكل في الواقع ، وهذا كفر بواح .

وأين هذا المقصود المخرب إلى جانب الحكمة المتجلية في الخروج بالنص من الخاص إلى العام ، ومن خطاب الصحابة إلى خطاب الناس أجمعين .

ولو تحققت هذه الكوكبة المباركة من الباحثين وسجلوا القرآن بحسب الزمن ، لكانت النتيجة وهي مرجوة عند الكثيرين أن يعتقد أن القرآن نص قديم بالٍ نزل للعرب ، ونقرؤه اليوم على أنه وثيقة تاريخية خاصة ببعض العرب الذين قضوا وانقضى كفرهم وواقعهم الذي احتاج إلى هذا النص الذي لم يعد له جدوى بعد قضاء الصحابة ، وهذا كفر صريح .

فلماذا لا نقول : إن الجمع على هذا الشكل استبعاد لفهم الخصوصية ، وإن القرآن قدّم حلولاً وقتية للمشكلات العالقة بواقع الصحابة ، ولما قصد الله تعالى تعميم الخطاب جعل ترتيبه الحالي على غير معيار الزمن ، حتى يتجاوز الزمن والأمصار ، إلا أن الدكتور أبو زيد يظن أن كل آية نزلت بسبب كما سيظهر في بحوث قادمة ، ويبدو أنه يجهل القاعدة الأصولية الذهبية : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وإذا كان الباحث يريد للقرآن الانغلاق في البيئة العربية والزمان العربي

---

(١) مفهوم النص القرآني ، ص/ ٥٢ .

القديم فإن هذا تضييق للفكر ورغبة جامحة في أن القرآن لم يصل إلينا ، وبما أنه وصل ، فلم يبق عند المتنصلين ، إلا التلبيس على الناس وبيان أن القرآن ليس لنا .

أما الدكتور جعفر دك الباب ، فله نظرة أدبية ، إذ يأسف على عدم تطور الحدث واكتماله في القصة الواحدة في سورة واحدة ، يقول : « إن ترتيب القصص القرآني في السور التي وردت فيها في نص المصحف الشريف لا يمكّن كشف تسلسل سرد الأحداث في كل قصة ، ويرجع السبب في ذلك برأيي إلى أن ترتيب تسلسل السور في المصحف الشريف لم ينطلق من تسلسل سرد القصص وفق الترتيب التاريخي لنزولها على النبي ﷺ ، لذا نطرح السؤال التالي : هل يمكّن ترتيب القصص القرآني وفق تسلسل السور التي وردت فيها على النبي من كشف تسلسل الأحداث وسرد الأحداث في كل قصة ؟ »[1] .

إذا كانت البقرة مشتملة على قصص بدايتها جاءت في سور تالية كقصة آدم وموسى وإبراهيم عليهم السلام فنقول للباحث : إن القصة ترد بأشكال مختلفة بين السور تبعاً للمقام الذي يتطلب هذه الجزئية أو تلك من أحداث القصة ، وليس القرآن كتاب قصة ، وإن كثرت فيه القصص .

فالقصة للاعتبار ، وليس لمجرد السرد الأدبي ، ومن قال له : إن جمال الحدث أن يتطور دائماً من البداية إلى النهاية ، فثمة قصص يبدأ سردها من النهاية ، وإذا قلنا القرآن هو كتاب قصة ، نجد أنفسنا مطالبين بكونه كتاب طب لأنه تحدّث عن خلق الإنسان ، وهذا لا يجوز .

وكأن الباحث لم يطلع على كتب قصص الأنبياء ، وهي كتب تسرد

---

(١) دعوة إلى قراءة جديدة لقصص القرآن الكريم ، مجلة التراث العربي ، العدد / ٧٠ ، ١٩٩٨ ، ص/ ٨٣ .

القصص من بدايتها ، وتجمع فيها الآيات بالتَسلسل الزمني ، وهناك الأمر جائز ، لأنه خارج نص القرآن العام ، لأن كتب القصة القرآنية صُنّفت للتعريف بالقصة وأصحابها وليس للاعتبار بموضوع أهمّ كالصبر على ملاقاة العدو وغيره ، وإذا كان الباحث قد ترك الأمر تساؤلاً ، فالجواب القطعي : كلاّ حرصاً على الحق والخير والجمال أيها الأديب !

ونختم بمقولة ينثرها الدكتور طيب التيزيني في كتابه « النص القرآني » مستمداً إياها من الغربيين يقول : « وإذا وضعنا في الاعتبار أن عناوين السور ليست من النص الأصلي ، وأن ترتيبها وترتيب آياتها كله توقيفي بحسب البعض وما عدا سورتي الأنفال وبراءة بحسب البعض الآخر ، فإنّ هذا سيعني أن الترتيب التاريخي لظهور السور والآيات وكذلك وحدة مواضيعهما غائبان عما سمي بالنص الأم الملزم الذي هو مصحف عثمان ، أما السبب المحتمل الذي كمن وراء ذلك فلعلّه تأخر الوقت أمام جمّاعه لإثبات هذا الترتيب ، وهذا هو المرجّح ، بخلاف ما يراه البعض من أن توقيفية القرآن أتت بأمر محمد النبي ﷺ ومن أنه من ثم لا مجال للاجتهاد فيها » .

إن عناوين السور ليست من النص الأصلي ، هذا صحيح ، يعني نحن لا نقرؤها في الصلاة ولا في غيرها ، ولا يمنع هذا من كونها بأمر الوحي ، ولكنه ينقل الرأي عن دومينيك سورديل في كتابه « الإسلام » ص/ ٤١ ، فنحن مع الاثنين في أن اسم السورة ليس قرآناً ، بيد أنه مقدس لجهة صدوره عن الوحي .

أما الرأي الثاني وهو غياب الترتيب الحقيقي عن مصحف عثمان بسبب تأخّر وقت الجمع فهو رأي استمده من هنري ماسّيه في كتابه « الإسلام » و« فجر الإسلام » لأحمد أمين ص/ ٢٢٩ ، وهل هذان حجة

داحضة لتواتر حفظ الصحابة للقرآن ؟ وهل نسي الصحابة الترتيب حتى جاء عام ٢٤هـ لدى جمع عثمان ، فتركوا له حرية الجمع والترتيب كما يحلو للجنته ، وأين نسخة حفصة رضي الله عنها ؟ والحقيقة أن الأجوبة الدامغة العقلية منها والنقلية مستفيضة كثيرة وهي تزعج ماسّيه وظلاله من العرب .

* * *